المؤسسات الاجتماعية والمجتمع المدني في العراق

فالح عبد الجبار

ثمة فهم شائع وشائه للمجتمع المدني يقوم على حصره في "المنظمات الطوعية"، وهو فهم يضرب جذوره في المدرسة الأميركية التي ورثت هذه الرؤية عن أليكسي دي توكفيل صاحب كتاب "الديمقراطية في أميركا". والعالم العربي يتداول هذا الفهم دون أية مساءلة نقدية، ويفشل، بالتالي، في إرساء قواعد للمجتمع المدني، متينة وفاعلة.

فهمنا للمجتمع المدني يعتمد على أربعة أركان، هي تباعاً:

١- هو المجتمع التجاري، الذي يستقل فيه الاقتصاد، أو إنتاج الثروة عن الدولة بوصفها جهازاً للحكم، أي انفصال الاقتصاد عن السياسة (آدم سميث - ثروة الأمم)، غير أن هذا المجال الاجتماعي المستقل ليس جنة التصالح بل هو مجال مصالح متعارضة (هيجل - فلسفة الحق، ماركس - نقد فلسفة الحق).

٢- المجتمع المدني يتمثّل أيضاً في المؤسسات الوسيطة التي تقف بين الفرد والدولة، وتتولى سلطات محدودة، تؤدي إلى نشر السلطة لا مركزتها، وإلى حماية الفرد من جبروت الدولة المركزية (مونتسيكيو - روح الشرائع).

٣- المجتمع المدني يتمثل أيضاً في الاتحادات الاجتماعية الطوعية، غير القرابية .non-primordial وإن نشوءها مرهون بوجود المؤسسات المذكورة في (١) و (٢)، ولا يمكن لها أن تقوم في فراغ (إليكسيس دي توكفيل - الديمقراطية في أميركا).

٤- أخيراً، هناك بعد رابع للمجتمع المدني هو نشوء مجال عام (public sphere) لتداول المعلومات غير المحتكرة سلعياً، تسمح بنشر آراء متعددة وتدقيقها، ونشر الشفافية (المدرسة الألمانية - أدورنو-هابرماس).

هذه أوجه مركبة، متداخلة للمجتمع المدني، نتخذها معياراً للقياس والتحليل والاستدلال.

الحقل الأول: المجتمع المدني في العراق:

تطورت نبتات المجتمع المدني الحديث في العراق منذ إصلاحات مدحت باشا (١٨٧٢)، وتواصلت في العهد الملكي (١٩٢١-١٩٥٨)، بوتيرة متسارعة. وكانت في الواقع عملية تحديث لمجتمع زراعي انتقل من أشكال التنظيم القرابية التقليدية، كالقبائل والعشائر، وبيوتات الأشراف والأعيان، والأصناف الحرفية، إلى مجتمع يعتمد معايير الثروة والتعليم الحديث، من دون أن يفقد ماضيه التقليدي بالمرة. فهو مجتمع انتقالي، تتجاور فيه الطبقات الحديثة، مع الفئات التقليدية، وتقع بين الاثنتين فئات وسيطة تحمل شيئا من هذا وذاك. ترعرعت طبقة من التجار والصناعيين والمصرفيين والمقاولين في قطاع خاص، على أساس اقتصاد السوق، وباتت قوة مجتمعية يحسب لها حساب. كما نشأت، قبلها، طبقة قوية من كبار ملاك الأرض.

وأدت عمليات التحديث، أيضا، إلى نشوء طبقات وسطى تعتمد بالأساس التعليم الحديث، مثلما تعتمد على الملكية ورأس المال في جانب.

وتبلورت طبقات عاملة في الصناعات الحديثة، وطبقة فلاحية معدمة في الأرياف. بإزاء نشوء الثروة الاجتماعية كمجال مستقل نسبياً، نمت أيضا اتحادات وجمعيات وحركات اجتماعية، تعبر عن هذه المصالح، وتذود عنها، ضاغطة على المجال السياسي. وبموازاة ذلك أيضاً، ازدهرت بشكل نسبي صحافة ومجال معلوماتي غير حكومي.

عملية التطور هذه انقطعت في حقبة الحكم العسكري "الثوري" (١٩٥٨-١٩٦٨)، وتشوهت تماماً في حقبة الحكم الشمولي (١٩٦٨-٢٠٠٣).

الحقل الثاني: تفكيك وابتلاع المجتمع المدني:

هابرماس

ادورنو

جرى تفكيك المجتمع المدني بقواه ومنظماته، تباعاً، بدفع من ميول تنموية أو اشتراكية تتمركز حول الدولة كفاعل رئيسي في عملية التحديث.

فأولا جرى إضعاف مؤسسة الملكية الخاصة بتحولات ابتدأت بالإصلاحات الزراعية التي قوضت الملكية العقارية الكبيرة، ومرت بتأميمات الرأسمال الخاص (١٩٥٩ و ١٩٦٤ تباعاً). بموازاة ذلك، توسع دور الدولة كمالك ومنتج اقتصادي، تعويضاً عن ضعف الرأسمال الأهلي، من جانب، ومسخاً له من جانب آخر. وبذلك حذفت قوة اجتماعية، هي نواة انفصال واستقلال المجال السياسي عن الاقتصادي.

الواقع أن زحف الدولة على مجالات المجتمع المدني، اتخذ أبعاداً قصوى في العهد الشمولي (١٩٦٨-٢٠٠٣). فهذه الدولة الشرهة، بسطت سيطرتها على الحياة الاقتصادية، مالكاً ومنتجاً. وكان نشوء الاقتصاد الأوامري أحد تجلياتها. وقد تحقق لها ذلك بفضل الفورة النفطية.

وعززت الريعية النفطية قدرة الدولة على امتلاك موارد هائلة مستقلة عن المجتمع، والقدرة على رشوة فئات اجتماعية واسعة، بل أمكن لها إعادة هيكلة طبقات رجال الأعمال المهمّشة، وحذف عناصر منها على أساس ديني أو جهوي أو إثني. وتمكنت من خلق مزيج من رأسمالية قرابية (أقرباء النخب الحاكمة) ورأسمالية خاضعة (crony)، فقدت مبادراتها السياسية، واعتمدت على الدولة كزبون، ومانح للعقود.

وأمكن لهذه الدولة، بفضل ريوع النفط، من أن توسع الطبقات الوسطى المعتمدة على الراتب، وأن تحقق لها ازدهاراً بيناً، في جانب، وأن تخضع جل هذه الطبقات لإيديولوجيا الدولة.

وفي هذا المجال ابتلعت الدولة أو أزالت كل الاتحادات الطوعية للطبقات الوسطى والعاملة، وألحقتها بنظام الحزب الواحد.

أخيراً، هيمنت الدولة الشمولية على مجال إنتاج وتوزيع الثقافة، بما في ذلك وسائل المعلومات والتدخل حتى في لغة التخاطب والاتصال.

هذا الإفراغ المستمر لكل مؤسسات المجتمع المدني جرى في ظل نظام شمولي تندمج فيه السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية في هيئة عليا (مجلس قيادة الثورة)، ما أسبغ على السلطة، في البدء، طابعاً شديد التمركز، ثم أسبغ عليها طابعاً فردياً.

الحقل الثالث: الأزمة وعواقبها:

لا نغالي إذا قلنا أن الريوع النفطية ساعدت في بناء وإرساء النموذج الشمولي، وأمدته بالوسائل اللازمة لانتصار الدولة على المجتمع المدني وتفكيكها إياه. غير أن الحرب العراقية - الإيرانية، أضعفت، بالتضافر مع انهيار أسعار النفط، هذه القدرات الهائلة للدولة الشمولية، فقلّصت إمكاناتها على تمويل الضمان الاجتماعي والخدمات الاجتماعية، كما أرغمها على البدء بإصلاح إداري، ثم فك جزئي للاقتصاد الأوامري (command economy) ولم تعد بقادرة على إدامة أجهزة عسكرية وأمنية ضخمة (جيش بنحو نصف مليون، وأجهزة أمنية بنحو ربع مليون، وجهاز إداري يناهز المليون). إن الريعية النفطية قوة عاتية بمعنيين: ثروة مجتمعية قابلة للإسهام في التنمية، وقوة قمعية قادرة على بسط جبروت النخبة الحاكمة. وقد قامت فعلاً بهذين الدورين معاً.

غير أن الأزمة التي احتدمت في أعقاب الحرب العراقية - الإيرانية، ثم في أعقاب حرب الخليج ٩٠-١٩٩١، والحصار العاتي، أدّت إلى نشوء وضع فريد: دولة شمولية ضعيفة، ومجتمع مدني منهك، بل محروم من مؤسساته.

في هذا الوضع من الفراغ النسبي، نمت شبكات القرابة، وأشكال التنظيم القبلي، لتسد مسدّ مجتمع مدني مغيّب. وبرزت شبكات التضامن المحلي في صورة إعادة تنظيم للدين الشعبي حول الجوامع والشخصيات الدينية.

قامت هذه الشبكات، التي شجعتها الدولة، على ملء الفراغ وتقديم خدمات الأمن (الحماية الذاتية)، والقضاء القائم على الأعراف (بعد انهيار أجهزة القضاء والشرطة)، علاوة على التعاضد الاجتماعي (إسعاف الفقراء، الأيتام، العاطلين الخ)...

ارتبطت هذه المؤسسات التقليدية بإحياء القبائل، وهي جزئية تقوم على فكرة الانتساب بالدم (أيديولوجيا النسب) لا على فكرة المواطن، وبات شيخ القبيلة شخصية اجتماعية بارزة من جديد، بعد أن كاد النسيان يطويها في بلد كان يعدّ، منذ القرن التاسع عشر، مقبرة القبائل.

وارتبطت المؤسسات التقليدية أيضاً بالشيوخ الدينيين وأئمة الجوامع والمجتهدين (الشيعة)، وهي أيضاً تقوم على الروابط المحلية، والدينية، وتقترن بنشر رؤى اجتماعية - سياسية ذات منحى أصولي في بعض الأحيان (كالوهابية والخمينية).

لم تعد الدولة الشمولية راعياً اجتماعياً بعد أن قامت بـ تجيير com-mercialization الخدمات الصحية والتعليمية، ولم تعد منتجاً رئيسياً، لكنها بقيت محتفظة بأجهزة العنف المشروع، متقاسمة السلطة مع القوى ما قبل الحديثة التي أطلقتها.

لقد تحرر المجتمع، جزئياً، من سيطرة دولة ميالة إلى الاحتكار المطلق، لكن أفراده بقوا بلا مؤسسات مدنية.

لقد نمت طبقة رجال أعمال عليا، نمواً واضحاً. فعدد أصحاب المليون (ممن توفروا على إيراد يناهز المليون خاضع لضريبة الدخل) بلغ مثلاً ٥٤ في نهاية العهد الملكي، ليرتفع إلى نحو ٨٠٠ عام ١٩٨٠، وإلى نحو ٣٠٠٠ بنهاية الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٨).

غير أن هذه الطبقات بقيت مفككة قطاعياً، وبقيت منقسمة إلى جماعات قديمة وحديثة، ذات ارتباط قرابي بالنخب الحاكمة، أو ارتباط بأجهزة المخابرات (ما يسمى بـ رأسمالية العباءة والخنجر). أما الطبقات الوسطى التي نمت من ٢٨٪ عام ١٩٥٨ إلى ٣٤٪ عام ١٩٦٨، فقد بلغت ٥٤٪ من سكان المدن (عام ١٩٩٠).

غير أن هذه الطبقات فقدت مكانتها، وانهارت أجزاؤها المعتمدة على الراتب انهياراً مدوياً خلال عقد التسعينيات، وباتت ركاماً من فئات مهمّشة.

ولعل طبقة المهمشين الحضر التي بلغت ٨٪ في عز الفورة النفطية في السبعينيات، قد توسعت الآن توسعاً هائلاً.

خرج المجتمع المدني من الحرب الاخيرة، إذاً، فاقداً المؤسسات والروابط الحديثة، فاقداً ثقافته الحضرية-العلمية، منغمساً في شبكة الروابط القبلية-الأسرية والدينية الأصولية، مشبعاً بقيم العنف، بعد ثلاث حروب عاتية.

لا نغالي إذا قلنا، أن بناء المجتمع المدني، مجدداً، سيبدأ مما يقرب من الصفر، في ظروف احتلال أجنبي لا يحظى بأي سند داخلي، بل تشتبك معه جل القوى المجتمعية في صراع سياسي مدني وسلمي لانتزاع الاستقلال الوطني.

أخيراً

إن المؤسسات التقليدية الحالية تقوم مقام مجتمع مدني مغيّب، وإن بقاءها أو تراجعها رهن بمدى النجاح في إرساء هياكل سلطة وطنية، وإعادة تأهيل مؤسسات المجتمع المدني، بأوجهها الأربعة: مؤسسة الملكية الخاصة المنفصلة عن الدولة، والمؤسسات الوسيطة والاتحادات الطوعية، ومجال المعلومات العام، المفتوح والشفاف.

ولن يتحقق مثل هذا البناء من دون قاعدته الأرأس: تحويل إنتاج الثروة إلى مجال اجتماعي مستقل عن الدولة، وبخاصة تحويل الريعية النفطية إلى ثروة بناء اجتماعي لا قوة قمع دولتية.

انه يحلم .. انه يلعب .. انه يموت

٢-٢

احمد سعداوي

عظام الجندي (٣)

هل اخبر قصي بشير بالأقواس العظمية التي تأتيني كل ليلة؟ هل اخبره بترهاتي هذه؟ اشعر بدافعية لرواية كل هذه الخزعبلات لقصي بشير لأنه يحضر في بعض الاحلام، وفي واحد منها كان هو بطل الفيلم القصير الذي اقلقني عندما استيقظت في الصباح.

كنا عراةً كما في معسكر التدريب، نركض تحت رذاذ دافئ، وكان قصي يتقدمنا دائماً، لأنه يلعب كرة السلة، ولأنه طويل، ولأنه يضحك من هذه التمارين دائماً، ولأنه قصي بشير، والسبب الاخير وجيه جداً ولكنه غامض في الوقت نفسه. فجأة شاهدنا الاقواس البيض للعظام البشرية، تعلق قصي بأحدها ثم بدأ يتشقلب ضاحكاً، بينما مررت مع اخرين تحتها، لأني لا املك جرأة التوقف عن الركض ومخالفة الامر العسكري، بعد مدة من الركض، لم اجد قصي بشير ولا الجنود الباقين، كنت اركض وحدي والاقواس تتكاثر، وكنت انظر اليها بحدة لعلي اجد قصي وهو يتشقلب من أحدها، لم افهم شيئا وهذه جدوى الحلم كما اعتقد على الحلم ان يكون غامضاً ومزعجاً، كل من روى لي أحلامه من الاصدقاء كان منزعجاً وقانطاً كأنه تلقى رسالة مجهولة للتو. وهل اختلف عنهم في هذا الموضوع، انا لا أتذكر في العادة سوى هذه الأحلام الرهيبة، التي تغزو بسطوعها ذاكرتي ولا تغادرها ابداً.

انقضت ايامي الخمسة عشر، وها انذا انتظر قصي بشير، كي يتسلم الواجب مني، انتهت اجازته وعليه ان يكون هنا في العاشرة صباحاً، كما عودني دائماً. في الحقيقة لا يشكل الامر عندي فرقاً كبيراً، ان انزل في اجازة للبيت او ابقى هنا، ولكن هذه اللعبة تمنحني فرصة اللقاء مع قصي بشير ليومين خلال الشهر، يحدثني في الليلة اليتيمة التي نبيت فيها سوية عن مغامراته خلال الخمسة عشر يوماً التي قضاها هناك في بغداد. لديه دراجة نارية، ويلعب كرة السلة، ولديه سبعة عشر صديقاً كلهم يشبهونه، يضحكون دائماً ويأكلون كثيراً، ويسرفون في النشاط البدني، لكن ما يميز قصي عنهم ربما رغم اني لم ارهم انه لا يتحدث عن النساء مطلقاً، لا يتهرب من الكلام عن النساء، وانما كلامه صمم بشكل لا يسد الكلام عن النساء فيه اي نقص، كلامه شريط محكم ومتين من اللاأنثوية. هو لا يكره النساء دعني ادافع عن موقفه هنا ولكنه لا يجد مبرراً للعروج عليهن في الكلام، وانا مقتنع بذلك، واحسده على براعته.

لم اجد فسحة لحديث طويل عن هلوساتي معه، لكني في الاقل اخبرته في الصباح، بعد ليلة من الثرثرة الطويلة، ان هنالك جثة لرجل في الوادي. كانت نبرتي تميل الى التحذير وكأني اقول له انتبه لهذه الجثة ربما يأتيك خطر منها. لكن استجابته جاءت مختلفة، اخبرني وكأنه ولد في هذه البرية العارية، ان هنالك العديد من الالغام الارضية اسفل الوادي، ومن المؤكد العديد من الجثث لجنود قتلوا او تطشرت اجزاؤهم خلال حرب الثمانينيات، فهذه المنطقة الحدودية كانت مسرحاً لمعارك عديدة، والله العالم كم قتيلاً وقع بدمائه على هذا الحصى الكئيب الذي لا يحصى عدده هنا.

الهيكل العظمي هو لجندي من تلك الفترة بالتأكيد، ولا موجب لإقلاق أرواحنا بالموتى، فالأحياء يكفوننا.

أقلق لأيامك القادمة يا صديقي، اقلق لحياتك، اخش على نفسك من الأفاعي ومن الماء الملوث، ومن الذئاب التي ستأتينا حتماً خلال الشتاء القادم.

تركت قصي فوق التلة العالية، وكلما ابتعدت نظرت اليه، ظل يبين طويلاً وراسخاً من مسافة بعيدة. ومع سيري المتثاقل على الارض المتموجة ظل يشحب ثم اختفى تقريباً عند حدود الوادي الشقي الذي يؤدي الى فوج المشاة الثالث لواء ٤٢٦، لم تعد عيناي تبصرانه، نزلت الوادي الشقي المعبد باقدام الجنود، من دون الخلاص من التفكير بأنه رغم كل كلامه المقنع غير قادر على منعي من القلق على جثة لا يكترث لها احد، لا يستطيع أحد إزالة الهلوسات التي ولدتها هذه الجثة،الخوف الغامض منها، ومن صورة كابوسية لموت انطلق في ذلك اليوم المشؤوم ليغلف العراء الذي أنا فيه.

السدة الترابية

ولدت بين الماعز، في الحقيقة لحسنتي سخلة عجوز قبل ان يلثم وجهي أي امرئ على هذه الارض، لذا احتفظ بعلاقة غامضة مع هذه الحيوانات. وانا على مرصدي اشاهد دائماً سرباً داكناً من رعاة الاغنام يتقاطر ببطء وسكينة مخترقاً الارض المحرمة، خلف التلول البعيدة. فتنتابني رغبة للنزول وملاحقة هذه القطعان، الإنصات الى همهماتها وثغائها المتقطع بالمضغ ،اصوات حوافرها الهامدة على الارض الترابية، يقينها الأكيد بما هي فيه. الطمأنينة التي لا شيء بعدها، يقين بايلوجي راسخ.

ذاكرتي مليئة بالقطعان التي تنزل الينا من خلف السدة الترابية، قادمة من المدينة، كنت اراقبها من بعيد، خائفاً من الكلاب السمينة التي تركض وتدور حول الاغنام والماعز بنشاط وحيوية، هذه الكلاب تأتيني خلال النوم على شكل قطعان، قطعان من الكلاب السمينة النشيطة، وانا اركض في الهواء بيأس كامل من الفرار والنجاة.

هذه القطعان جلبت لي حسن الراعي، وجلبت الينا في عزلتنا أخبار المدينة، والفرق الرياضية، ومقتسمي السرقات، والعشاق التائهين. والهاربين من الخدمة العسكرية.

جلبت إلينا عدنان بن حجي خضير مطلع الثمانينيات، كان نحيفاً وقصيراً وذا صلعة مبكرة، ويداه تشبهان يدي امرأة، كان فاراً من معسكر التاجي، نزل بإجازة ليومين الى أهله، لكنه بدلا من الذهاب اليهم قصدنا، لم يكن يتوقع رؤيتنا، لكن ابي آواه دون ان يتعبه بالأسئلة الكثيرة، كنا بالمصادفة على طريق فراره الأعمى.

أشار ابي الى السدة الترابية وهو يقول لي، عليك ان تتوقع كل شيء، خلف هذه السدة الترابية التي لا يتجاوز ارتفاعها العشرة أمتار، مشاكل عديدة، البلد يتقلب بعنف وعليك ان تتيقظ للآتي، عليك ان تفتح عينيك حتى وأنت نائم، لا أمان في هذه الحياة.

كنت افتح عيني دائماً، بل أن لي ما لا يحصى من العيون داخل النوم، وكان العالم يقتحم غفوتي مهما كانت قصيرة، يداهمني من الباب الذي افترض انه المخرج الوحيد للهروب منه.

الخروج من البرية

تغير كل شيء بسرعة هائلة، تحطم فوق رؤوسنا العالم الذي صنعه والدي دفعة واحدة، ولا ادري هل تحطم فوق رأسه هو ايضاً، لكن المؤكد اننا في العراء الان، اصبحت البرية التي نحن فيها شريرة وغدا حيادها قاسياً امام مأساتنا. كان ابي يراها ملجأ يحميه من الشرور وغدت الان منفى.

استعاد مشاري العماري ارضه منا وسلمها الى خلف أبن حجي محيو الذي يشترك مع ابي بالنسب، لكنه يختلف عنه تماماً، وابن محيو هذا هو من اقنعنا بعد مرض والدتي بأن نترك البيت ايضاً، خصوصاً ان الموظف في محطة الاسالة قطع الماء عنا، بحجة اننا نستخدمه في الزراعة، وانه كان يمنحنا الماء خارج الحصص القانونية على سبيل الصدقة. موضوع الزراعة هذا اثاره ايضاً مشاري العماري فهو يقول اننا لولا محنتنا التي فيها لطالبنا بايجار السنوات الماضية عن زراعة الارض بالجت، وهو يدعي بأن ابي اجر الارض منه لهذا الغرض، ولم يكن في يوم ما حارساً عليها.

عبرنا بصرر ملابسنا وأوانينا القليلة السدة الترابية باتجاه المدينة، كنت التفت الى هذه السدة أثناء السير واشعر بأننا تركنا ابي خلفنا في ذلك البيت.

كنت ابلغ العاشرة من عمري.

عظام الجندي (٤)

كانت خلاصة الاخبار التي جمعناها أن ابي ذهب بعد تدريبات سريعة لم تستمر سوى عشرة ايام الى شرقي البصرة، وهناك ربما أسر او قتل او اختفى، لكن الرفيق محمد داخل يقول ان المجموعة التي سيق معها ابي ذهبت باتجاه الشمال، هذا الرفيق انكر انه من ساق ابي الى الجيش الشعبي وقال انه كان من ضمن مجموعة الرفيق حنون سوادي، وهذا الاخير سجل اسم ابي بناءً على رغبته بالتطوع الى الجيش دفاعاً عن الوطن وحماية لشرف نسائه!

ولكن هذه الثرثرات لم تعد مهمة، لقد انتزعتموه منا، ولا نعرف مصيره الان، هل هو في الشمال ام في الجنوب، هل مات ام مازال حياً؟

أتبول في الوادي واسمع عواء ذئاب بعيدة، لقد صدق قصي بشير وها هي الذئاب قادمة.

بعد انتهاء حرب الثمانينيات عادت أفواج من الأسرى، ثم أعيدت تباعاً أكياس عديدة تحوي رفات جنود عراقيين ماتوا في الأسر او قتلوا ودفنوا في الأراضي الإيرانية، ولم يكن ابي من بينهم.

ظلت امي تتسلم راتباً عن زوجها (المفقود) حتى وافتها المنية ذات ليلة شتائية، مع اقتراب الذكرى الاولى لغياب ابي، ومع هذا الحدث المفاجئ اصبحت يتيماً تماماً، غدوت في العراء الكامل.

يقول قصي بشير ان وحدتنا الأصلية في الفيلق قد هيأت البدلاء وسيأتون نهاية هذا الشتاء ليحلوا محلنا.

افكر وانا احمل جاريكاناً ثقيلاً من الماء الى اعلى التلة ان الاشهر القليلة التي قضيتها في هذه البرية نشطت ذاكرتي، اعادتني الى صورتي القديمة التي محتها المدينة. بريتي الاولى مع اضافات بسيطة.. ذئاب في الشتاء، وموتى في الوادي، وعزلة اشد.

تضاعفت احلامي مع تساقط الايام تباعاً باتجاه يوم تسريحي من الخدمة العسكرية، لن يعود قصي الى التلة، وسيأتي بديله، بينما بديلي سألاقيه في الفيلق. داهمتني مشاعر غريبة، بدأت اطيل النظر الى الهضبة المتموجة الواطئة امامي حتى الحدود غير المعلومة للاراضي الايرانية، انظر الى قطيع صغير من الغزلان بمرقاب الثمانية كيلومترات، او هي حمير وحشية او لا ادري.

نزلت الى الفوج وأكلت البيض المقلي مع الطماطم عند نائب ضابط مجيد في الحانوت، وشربت البيبسي، وانا اتحسس طعم هذه التجربة الغريبة لآخر مرة، وقبل مغيب الشمس بساعة قفلت راجعاً الى تلتي. ما الذي حلمت به في تلك الليلة؟

كنت انبش في القبر الاعتباطي لذلك القتيل المجهول في الوادي القمعي الذي يتوسط ثلاثة تلال اعلاها تلتي، ومع حماستي ظهرت أضلاعه كاملة، ثم بقايا عموده الفقري، وخيل إلي انني سأجد كامل هيكله، لكني لا اتذكر ما هو المفقود من عظام هذه الجثة، في الحقيقة رأيت اشياء اخرى، ساعة يدوية صدئة، قدراً صغيراً من الالمنيوم، قلم حبر او ما كان شبيهاً بذلك، ثم محفظة جلدية، قلبتها بسرعة، فوجدت اوراقاً متحللة ربما كانت نقوداً، ووجدت دفتر الخدمة العسكرية، وهوية شاحبة لا يبين منها شيء.

في الصباح جاءني بديل قصي، كان شاباً نحيفاً يرتدي نظارات طبية، قال لي انه خريج لغات، رمى بحقيبته القماشية على ما كان سريري، ثم غسل وجهه ويديه من جريكان الماء بدون أي حرج وكأنه في بيته ،وقدم لي طعاماً كان قد جلبه معه. بعد ساعتين تقريباً هبطت من التلة وانا احمل سلاحي وحقيبتي القماشية. مررت بالوادي القمعي، كان هيكل الرجل المجهول مكشوفاً بطريقة فوضوية، اذهلني منظره، وتلفت يميناً وشمالاً، كنت وحدي، بينما بديل قصي في الاعلى نائم فوق سريري (سريره) من فرط التعب، اقتربت، كانت العظام مبعثرة حول حفرة ما زالت طازجة، أحدهم نبش هذا القبر. ولست انا بالتأكيد، تذكرت كلام ضابط الامن في الفوج، فخفق قلبي.

أبتعدت مسرعاً، كأني اهرب من فخ يمكن ان يحبسني في هذا المكان فترة طويلة، أمامي خمسة كيلومترات حتى اصل الى الشارع العام ومن هناك اركب باتجاه خانقين، ومنها الى بغداد، لن أعود ثانية الى هذه البرية، انا متأكد من ذلك. ولكنني عدت، وهذا الذي في الوادي لم يعد الى اهله مطلقاً، هنالك امرأة او أناس انتظروه حتى ملوا، ثم هل سقط من التلة العالية، ام قتله قناص ما، ام ماذا؟ وهل نبشت قبره الذئاب التي تحدث لي عنها قصي كثيراً رغم عدم رؤيتنا لها؟ أم ان الذئاب لم تكن سوى كلاب برية تهيم في الوديان تتشمم أي طعام محتمل؟

ماذا لو ان ما قمت به كان حقيقة ولم يكن حلماً، هل كنت سأقرأ اسم هذا الفقيد في بطاقة هويته؟

ولو ان الحرب ما زالت مشتعلة هل كنت سأكترث كثيراً لأمر جثة منسية؟ على سبيل المثال لقد توصل الكثيرون مع تعاقب السنين الى الايمان بأن ابي تحول الى جثة منسية، لكني لم استطع تصديق ذلك. ورغم عبثية الكثير من الافكار التي راودتني، لكني لم استطع إبعاد فكرة ظهوره فجأة امامي في الشارع او في البيت او في أي مكان، ظل يأتيني في الاحلام كثيراً وبشكل مؤلم، بدشداشته المخرمة بثقوب السجائر وغترته حائلة اللون نفسها، كان يسير ببطء في احلامي صامتاً كأنه يفكر، وكنت غير قادر على التفكير اثناء الحلم، كنت غارقاً في ألم الحلم الذي لا نهاية له. أحسست وأنا أراقبه يبتعد أو يقترب بأنه يفكر بي وبأختي، أردت أن أفكر كي اعرف ما الذي يريد قوله، لكنه ظل صامتاً، وظللت احلم.

ظل يجيء ويذهب، حتى ذهب، ولم اعد أحلم مطلقاً، او لم اعد اتذكر ما احلم به، لأنه ربما ،أي الحلم، لم يعد يمثل إشارة لشيء جوهري، وعاودتني الأحلام الساطعة هنا. طوال السنة الماضية، غدوت مثل ماكينة أحلام، وبدأت زياراته المتتالية، يروح ويجيء، صامتاً يطقطق بمسبحة كبيرة الحبات، وأنا ألاحقه مفكراً بما يريد ان يقوله، ولكن من دون جدوى.

الخروج من البرية (٢)

عبر آخر تموج في الهضبة المزعجة، كانت اقدامه تئن، لكن الشارع أمامه الآن، نظر الى الخلف، لم يعد قادراً على رؤية تلته أو الفوج أو أي شيء، مجرد شريط شاحب من أشجار الفواكه لمزارعين أكراد من القرى المجاورة، ومع مرور سيارات الفلاحين المتتالية، تشمم رائحة مختلفة، انها المدينة، ها هي البرية خلفه، ركب في باص صغير باتجاه خانقين، واستسلم لأفكاره الغامضة والمتشابكة. كان يقبض بيده على حقيبته القماشية ، مع إحساس لم يغادره خلال الطريق بأنه نسي شيئاً ما هناك، هناك في تلك البرية، هناك، هناك.

اصـــــدارات

فكر حر
مجلة التجمع الثقافي في شارع المتنبي

عرض :المدى الثقافي

صدر العدد التجريبي وهو العدد (صفر) من مجلة (فكر حر) الصادرة عن التجمع الثقافي في شارع المتنبي وهي مجلة ثقافية معنية بمفاهيم البناء الديمقراطي للأمة العراقية يرأس تحريرها كريم حنش (سكرتير التجمع) وسكرتارية تحريرها علي طالب، وقد حوى العدد موضوعات ثقافية منهجية متعددة وتصدرته افتتاحية رئيس التحرير عن اهداف هذا التجمع ومسؤوليته تجاه الحركة الثقافية العراقية في العراق الجديد.

من موضوعات العدد بحث جمعه عبد الله مطلك (الحرث ليس دائما في البحر- تواصيف الديمقراطية) الذي اكد فيه بعد عرض شامل للمشاريع الليبرالية والديمقراطية ان حظوظ الليبرالية العربية تبدو واعدة اكثر رغم افتقادها جهد الاكاديميين والتدريسيين كما ان لليبراليين العرب معادلتهم الجديرة بهم : تشاؤم العقل تفاؤل الارادة. ثم يأتي بحث وليد خالد احمد حسن (الاختلافية الفكرية حول فهم ماهية العلمانية) حيث درس فيه المشروع العلماني المؤسسي في التجارب العالمية وصولاً الى التطبيق العراقي لها ثم درس الباحث صادق الازرقي (المحاصصة الطائفية والقومية والبناء العراقي المنشود) وجاء بحث نوفل عبد الواحد تحت عنوان (بين تأسيس الدولة العراقية واعادة التأسيس (حيث عرض صورة بانورامية لتأسيس الدولة العراقية الحديثة وممكنات اعادة التأسيس بعد سقوط نظام صدام حسين القمعي .

من موضوعات العدد الاخرى:

❖ وأد ذاكرة المواطن غاية الانظمة الشمولية - محسن البحر .

❖ كيان المثقفين االسياسي- خزعل الوصال.

❖ الديمقراطية والمجتمع المدني – عبد العظيم جبر.

❖ المجتمع المدني- جاسم الصغير .

❖ المثقفون ومستقبل عراق ما بعد الانتخابات –حوار مع د. عامر حسن فياض اجراه سعدون هليل .

الجمعية الوطنية الانتقالية- طارق حرب

❖ دور الفرد في التاريخ (عبد الكريم قاسم نموذجا) –د. عقيل الناصري.

❖مغامرة الفلسفة اليونانية –كريم حسين الجاف.

❖ لودفيج فنجشتاين –د. فيصل غازي مجهول.

❖ صراع الاشكال في الشعر العربي –سعيد عبد الهادي.

❖ قراءة ادونيس لنص رامبو –د. عصام العسل .

❖ خواص استقلالية للفن السينمائي –حسين السلمان.

❖ فذلكة تاريخية في سوق الكتبيين في بغداد –زين النقشبندي.

نتمنى لـ(فكر حر) كل التوفيق في خدمة ثقافتنا المعاصرة .